البلاغات غير اللفظية في كتاب "الإمامة و السياسة" لابن قتيبة -مقاربة سيميائية-

الدكتورة: ابتسام بن خراف
قسم اللغة العربيـة وآدابهـــا
جامعة الحاج لخضر باتنـة

يعد كتاب "الإمامة و السياسة" للعالم الفاضل عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، من أشهر الكتب تداولا بين قراء العربية ، بل من أهم الكتب التراثية والكتب السنية المتقدمة التي تعرض قضايا السياسة و الحكم الإسلامي.

و تمثل مادته قطعا أدبية متكاملة، ذات لغة متينة خالية من اللحن، تنم عن حس أدبي واضح، كما يمكن اعتبارها مخزنا لعدد كبير من الخطب و الحوارات السياسية التي وظفها المؤلف وسيلة ناجحة لاستعراض تطورات الخلافة و الصراع حولها.

إن هذه المادة في حقيقتها ليست إلا خطابا سياسيا، ذلك أنها تعكس وعي الفرد المسلم آنذاك بأهمية التعبير عن الإرادة السياسية في اختيار الحاكم و في مراقبته، كما تكشف أيضا صيغا أخرى للمشاركة السياسية متمثلة في المعارضة؛ باعتبارها وجها آخر للتعبير عن الإرادة السياسية.

لقد توفرت هذه المادة على جميع وسائل الخطاب التبليغية وحققت الإمكانات الفكرية الكامنة فيه، محققة بذلك شكلا من أشكال التواصل الشفهي من أهم خصائصه خاصية التأثير.

غير أن المخاطِب السياسي في الكتاب لم يلجأ إلى الصريح من القول في تواصله مع متلقيه، بل عمد في كثير من الأحيان إلى استخدام المعنى الضمني حتى يوجه المتلقي إلى التفكير في الشيء غير المصرح به؛ مستعينا في ذلك بمجموعة من البلاغات غير اللفظية، ممثلة في الحركات الجسدية و بعض الإشاريات.

لذا تسعى هذه الدراسة إلى إماطة اللثام عن أهم الإيحاءات الرمزية و التاريخية للبلاغات غير اللفظية في الخطاب السياسي في كتاب "الإمامة و السياسة"، متكئة على التحليل السيميائي لفضح المعاني والدلالات التي تسكن في عمق لغة الجسد و الإشاريات في الكتاب.

كما تسعى الدراسة إلى التأكيد بأن الفعل الإنساني متميز بقدرته على الإنتاج الدائم للمعاني و أن هذه المعاني ليست محمولة بواسطة الملفوظ المعطى فحسب، بل هي محمولة أيضا بوساطة شكل آخر من أنساق التواصل غير اللغوي، هذه الأنساق هي بلاغات غير لفظية يعتمدها المتكلم قصد الإقناع و التأثير .

1.خصائص التواصل الشفهي في كتاب " الإمامة و السياسة":

تعد أشكال التواصل الشفهي كالخطابة و الحوار بأصنافه المختلفة في كتاب " الإمامة و السياسة" أهم موطن برز فيه استعمال البلاغات غير اللفظية؛ لما له (التواصل الشفهي) من ديناميات نفسية و خصائص تجعله أنجع طرق التأثير، و لما يخلقه من جو تفاعلي بين المخاطِب و المتلقي ، و ما يوفره من ميل إلى المشاركة الوجدانية بين أطراف التواصل في مقابل الحياد الموضوعي، أما عن أهم خصائصه أذكر:

خاصية حضور/حضور

و يقصد بها وحدة الإطار المرجعي بين المخاطِب و المتلقي . ذلك أن القول المنطوق يصدر غالبا عن « شخص حقيقي حي إلى شخص أو أشخاص آخرين حقيقيين أحياء في لحظة زمنية نفسها و في موقف حقيقي يتضمن دائما ما يتجاوز مجرد الكلمات»[1]، مما يسمح بمخاطبة حاستي السمع و البصر للمتلقي و يتيح إمكانية أبرز و أفضل لإحداث تفاعل أشد و تأثير أعمق . فالمشاركون في التواصل لديهم ما يسمعونه حقيقة، و ما يرونه أيضا.

[1] والتر أونج، الشفاهية و الكتابية، ترجمة حسن البنا عز الدين، عالم المعرفة، الكويت، فيفري، ع182، 1994، ص73

2.1 المقومات العاطفية

يقصد بالمقومات العاطفية مجموع البلاغات غير اللفظية / أنساق التواصل غير اللغوي التي يستغل المخاطِب إمكاناتها التأويلية في التأثير ، حيث يستعمل جسده و لباسه و مجموعة من الأشياء المادية المصاحبة للفظ والمكملة له.

ذلك أن الخطاب الشفوي لا يتحدد فيما يسمعه السامع فقط، بل فيما يراه أيضا، كأن الأمر يتعلق « بعرض مسرحي ، إنجازه يقتضي القدرة على تحويل الجسد إلى جسد متكلم، يقول و يعبر و يرمز و يؤثر»1.

إن انحناءات الرأس و حركة اليدين و بعض الأشياء المادية تحمل بداخلها بشكل شعوري و لا شعوري عمقا سيميولوجيا تمتد دلالته إلى المتلقي، هذا الأخير يحصر المعطيات الأولية المنتمية للتجربة المشتركة ، و عبر فعل تأويلي يفكك المعطى و يعيد بناء الدلالة التي عمل المخاطِب على إرسالها ضمنيا.

إن البلاغات غير اللفظية علامات سيميائية تخضع بدورها للسيرورة الخطابية

و يساعد على اكتشافها المقام و حيثيات القول و العناصر الباقية من المشهد التلفظي .

و عليه فإن هذه البلاغات غير اللفظية إذا كانت معزولة من حيثيات المقام فإنها تفقد التواصل وظيفته السجالية الذي قوام ارتكازه على المعنى الضمني.

2. البلاغات غير اللفظية في التراث العربي:

أشار الجاحظ إلى البلاغات غير اللفظية (أنساق التواصل غير اللغوي) و بين دورها في الإبلاغ و التأثير ، و قد اختلطت عنده بمفهوم البيان و كادت تلتبس به ، حيث عرفه

---

[1] ينظر حسن المودن الخطاب الإقناعي في البلاغة العربية، ملخص عن أطروحة دكتوراه الدولة، كلية الآداب، مراكش، جوان 2006، ديوان العرب، دراسات و أبحاث،

http://www.diwanalarab.co/spip.php?article5018

قائلا: « البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى و هتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته، و يهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، و من أي جنس كان الدليل ، لأن مدار الأمر و الغاية التي يجري إليها القائل و السامع، إنما هو الفهم و الإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام و أوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع »1 .

يرى الجاحظ أن أنساق التواصل غير اللغوي صنف من أصناف الحياة التواصلية الإنسانية، و هي ذات وظائف إبلاغية و إقناعية، و هي تسهم في التأثير في متلقي الخطاب ، لذلك جعلها بعد الفهم بخاصة في الخطابة التي كانت في عصره النموذج الراقي للبيان الذي احتفى به الخاصة.

لقد حظيت البلاغات غير اللفظية منه باهتمام كبير باعتبارها جزءا من بلاغة الخطابة العربية من جهة ، و لكونها هدفا لمطاعن الشعوبية لاتصالها بنسق الحياة البدوية من جهة ثانية.

هذا و قد صنفها إلى صنفين هما:

1.2 الإشارة التابعة لسلوك معين و هي نوعان:

-إشارة بعض من أعضاء الجسم و في ذلك نجده يقول: «...فأما الإشارة فباليد وبالرأس و بالعين و الحاجب و المنكب..»2

- إشارة تتم من خلال المظهر و يتجلى ذلك في قوله: «...و بالثوب و بالسيف، و قد يتهدد رافعُ السيف و السوط فيكون ذلك زجرا و مانعا رادعا، و يكون وعيدا و تحذيرا»3

---

[1] الجاحظ، البيان و التبيين، ج1، تحقيق و شرح، عبد السلام هارون،دار الجيل، بيروت، ج1، دط، دت.

ص 76.

[2] البيان و التبيين، ج1، ص77.

[3] المرجع نفسه، ص77.

2.2 الإشارة التابعة للفظ و الكلام

يقول الجاحظ :«... و الإشارة و اللفظ شريكان في الفضل، و نعم العون هي له و نعم الترجمان هي عنه، و ما أكثر ما تنوب عن اللفظ، و ما تغني عن الخط...»1.

إن المظاهر الإشارية (الثوب، السيف، السوط) و السلوكية (حركة اليد، الرأس،المنكب الحاجب، العين) المصاحبة للغة المدعمة لها و التي أوردها الجاحظ، تحتوي دلالات مضمرة يقتدر بها الخطيب و الشاعر في التواصل حتى يثبت رأيه و يقنع الآخر و يؤثر فيه.

3.سيميائية الجسد في كتاب "الإمامة و السياسة":

تعد السلوكيات الحركية الأساس الذي يبنى عليه الاتصال غير اللغوي ذلك أن نَقْل العلامات يتم إنجازه بوسائل أخرى غير الألفاظ المنطوقة أو المكتوبة و يتضمن هذا المصطلح تعبيرات الوجه و العينين، و حركات اليد و الذراع، و الهيئات و الأوضاع الجسمية و حركات الجسم المتنوعة: الأرجل و السيقان و الأقدام.

و قد أقرَّ عددٌ كبير من اللغويين بأهمية الدور الذي تؤديه الأنظمة الخارجة عن نطاق اللغة (الحركة الجسمية) في التواصل و عن الأثر الذي تتركه في نفس المتلقي. يقول سوونسكي: « من الممكن حقا أن تعرض سياقات دلالية كبرى في شكل إيمائي، بحيث تستغنى عن اللغة اللفظية، و غالبا ما يكون للعلامات الإيمائية أو الجسمية وظيفة مصاحبة الأحاديث و أشكال الاتصال الشفهي الأخرى، و مع ذلك فإن هذه العلامات الإيمائية و الجسمية وظيفة دلالية تكميلية، من حيث أنها تظهر شكل العلاقة أثناء الاتصال و تقويه، كما أنها تشير إلى الموقف الشخصي و السلوك الانفعالي الذي يسلكه أحدهم تجاه الآخرين أو [ضدهم]»2

كما لاحظ "سالزمان" أن العلامات الحركية الجسمية تميل إلى أن تكون علامات أيقونية

---

[1] البيان و التبيين، ج1، ص78.

[2] محمد العبد، العبارة و الإشارة، دراسة في نظرية الاتصال، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 2007، ص110.

من حيث أنها تماثل ما يفترض أنها تنقله، أكثر من كونها علامات اعتباطية .
و يعد العالم "بيرد هويستل" أهم من عنى بالبرهنة على أن السلوك الحركي سلوك مقيد بالثقافة، إذ يرى أن قدرا لا بأس به من الحركات الجسمية و الإشارات و تعبيرات الوجه، يبدو مشتركا بين ثقافات متنوعة، في إنتاجه و مدلوله، لكن يظل قدر غير قليل منها مقيدا بالثقافة أو الثقافات الفرعية في جماعة كلامية بعينها، و ممارسا عمله من خلال الأعراف السائدة و الفاعليات الاجتماعية لتلك الجماعة.و من هنا يكون الاختلاف بين جماعة و أخرى في استقبال تلك الحركات الجسمية و قبولها و إدراك معانيها، و ربما اتخذت حركات بعينها – في بعض المواقف الكلامية- مؤشرا على الطبقة الاجتماعية و المستوى الثقافي لمحدثها1.
من خلال هذه المعطيات يمكننا الحكم على أن كل حركة لكل جزء و عضو في جسد المخاطِب السياسي سواء كان محاورا أو خطيبا في كتاب "الإمامة و السياسة" تعد توابع علاماتية مرئية منظمة داخل نسق تراتبي و مبنين. و من ثم فهي تضمر أهدافا مشحونة سيميائيا.
و لتفجير هذه الشحنة،يتكىء المخاطِب السياسي على القدرة التأويلية للمتلقي، هذا الأخير يستنتج الضمني بنفسه بوساطة مجهوده التأويلي و غَرْفا من مصادر التأويل المتعددة: الثقافي و الاجتماعي و الديني.
و فيما يلي عرض لقراءة إيحائية لبعض تعابير اللغة الجسدية في كتاب الإمامة و السياسة:

1.3 تشبيك الأصابع:

قدَّم االمخاطِب السياسي الخليفة الشهيد "عثمان بن عثمان" الحركة الجسمية "تشبيك الأصابع" علامة مصاحبة للملفوظ في خطابه للمحاصرين حتى يضمن النتيجة المتوخاة (الضمني)، جاء في الكتاب: «... يا قوم لا تقتلوني فإنكم إن قتلتموني كنتم هكذا، " و شبك بين أصابعه"، يا قوم إن الله رضي لكم السمع و الطاعة ، و حذركم المعصية

[1] ينظر المرجع نفسه،ص 108-109.

و الفرقة، فاقبلوا نصيحة الله، و احذروا عقابه...»1 .

إن تشبيك الأصابع والذي هو تداخل بين أجزاء العضوين المتداخلين هو حركة مركبة باعتبار العلاقة بين أصابع اليدين هي التي تصنع الهيئة المقصودة للحركة، حتى تكتسب مغزاها، و تدل في الغالب على معنى الخلط و التداخل و تعني أيضا القتال بالأيدي و العراك و تستعمل مجازا بمعنى التداخل في الأمور المعنوية (الأفكار و الآراء) و بمعنى التصارع و الاختلاف2 .

لقد اعتمد الخليفة على هذه الدلالات المضمرة للحركة الجسمية "تشبيك الأصابع"، فكانت أصدق من غيرها و أدق في تصوير هيئة الأمة بعد اغتياله.يوضح ذلك الرسم التالي:

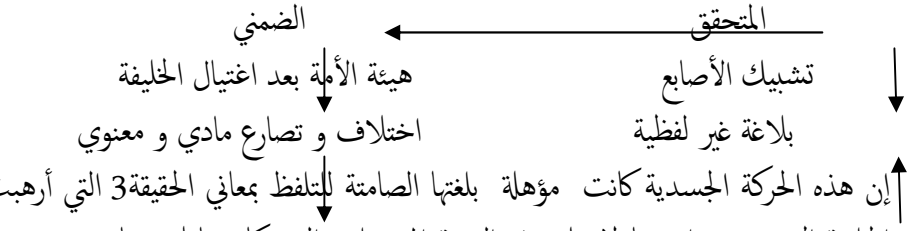

إن هذه الحركة الجسدية كانت مؤهلة بلغتها الصامتة للتلفظ بمعاني الحقيقة3 التي أرهبت الخليفة الشهيد ، فراح محاولا نقل هذه الرهبة إلى متلقيه الذي كان غافلا عنها.

2.3 مدّ اليد و المعانقة (الضم إلى الصدر)

لم يكتف المفاوض "عمرو بن العاص" بتحضير الحجج اللغوية، بل استعان بجميع الأساليب و الطرق المساعدة على إقامتها ؛ و التي منها تنمية حاسة الراحة و الاطمئنان بامتياز لدى

---

[1] ابن قتيبة، الإمامة و السياسة، تحقيق خليل المنصور،دار الكتب العلمية، بيروت ، ط1، 2001 ص39.

[2] ينظر محمد داود، الدلالة و الحركة، دراسة لأفعال الحركة في العربية المعاصرة في إطار المناهج الحديثة،دار غريب، القاهرة، 2002، ص450.

[3] ينظر العياشي عبوب، سيميائيات الجسد في طقوس كناوة، بحث في الهوية و الامتداد. أنفاس .نت، نوفمبر 2010، http://www.w3.org/TR/xhtml1/DTD/xhtml1-transitional.dtd

الطرف الثاني "أبي موسى الأشعري" .

جاء في "الكتاب" أن "أبا موسى الأشعري" و "عمرا " لما اجتمعا بدومة الجندل و حضرهما من يليهما من العرب ليستمعوا قول الرجلين،-لأجل التفاوض في مسألة الحرب- فلما التقيا استقبل عمرو أبا موسى، فأعطاه يده و ضم عمرو أبا موسى إلى صدره، و قال: « يا أخي قبَّح الله أمرا فرّق بيننا، ثم أقعد أبا موسى على صدر الفراش، و أقبل عليه بوجهه»1.

قبل أن يُقدِّم المفاوِض "عمرو بن العاص" الموجه التقويمي "يا أخي" يستميل غريمه بحركة سلوكية إيجابية : تقديم اليد و الضم إلى الصدر" و يتلوه (الموجه التقويمي) بموقف سلوكي إيجابي آخر: "أقعده على صدر الفراش و أقبل عليه بوجهه".

إن المحنك "عمرو بن العاص" ليس بغافل عن أهمية هذه الحركات الجسمية و دورها في التأثير، لذا فقد أحسن استعمالها لاستمالة محاوره و بث الطمأنينة في قلبه؛ حتى لا يشك بعد ذلك فيما يعرض عليه.مستحضرا بذلك قول عمر بن الخطاب : "ثلاث يثبتن لك الود في صدر أخيك : أن تبدأه بالسلام و توسع له في المجلس و تدعوه بأحب الأسماء إليه"

إن الحركة الجسمية المركبة: "مدّ اليد " اتخذت علامة على دلالات "أقوال مضمرة" عدة أهمها "التحية"؛ و المدّ الجذب و المطل و مدُّ جارحة اليد إشارة للترحيب و للسلام، و أما الضم إلى الصدر فهي حركة جسمية مركبة يشترك فيها أكثر من عضو في الأداء الحركي، تعبيرا عن الوُدّ و المصالحة و هي أيضا تعبير عن الوحدة و الامتزاج2.

إن هذه الحركات الجسمية هي بديل سلوكي حركي عن منطوقات لفظية " أقوال مضمرة" يستنتجها المتلقي "أبو موسى الأشعري"، فتؤثر في عقله و عاطفته ومن ثم تهيئه للولوج في التفاوض و هو مطمئن البال قرير العين.

---

[1] ينظر الإمامة و السياسة، ص109.

[2] ينظر الدلالة و الحركة، ص488.

و لمّا كانت تعبيرات الوجه المختلفة -بالهيئة العامة أو بالحركة الدالة- ما يرمي أحد المشاركين في الحوار إلى توصيله إلى غيره؛ كانت حركة الإقبال بالوجه أحسن سلوك حركي للتعبير عن الرغبة في الرؤية و قبول إقامة الاتصال1 مع المحاور "أبي موسى الأشعري" و يعضد هذه الدلالة إقعاده على صدر الفراش، تعبيرا عن تحول جسد المفاوِض من وضع القيام إلى وضع الجلوس، أي انتهاء الحركة إلى الثبات و الاستقرار حتى يتم التفاوض في هدوء و أمان.

إن هذه الحركات الجسمية المذكورة أعلاه تنطوي على معان و دلالات اتكأ عليها المفاوض عمرو بن العاص حتى يستميل مفاوِضه و يستدرجه إلى النتيجة المتوخاة (الضمني)، حسب ما يمثله المخطط الآتي:

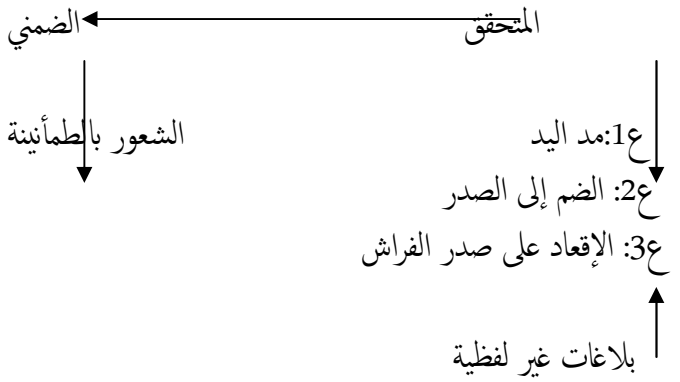

لقد تقصد عمرو بن العاص هذه الحركات الجسدية (العلامات) و ترصد حسن استخدامها، إذ شكلت بنية استدلالية فاصحة عن « مساحة تأويلية فسيحة [نمت] فيها

[1] ينظر الدلالة و الحركة، ص 360.

الوظائف السردية القادرة على كشف الدلالات و المواقف الثقافية »1 .

4. سيميائية الإشاريات:

إن التواصل الشفهي يفرض على المتكلم مقتضيات مختلفة، و من هذه المقتضيات أن المتكلم تُتَاح له طائفة من المؤثرات "أنساق غير لغوية" في التواصل، أي أنه يمكن أن يستعمل مجموعة من الأشياء المادية المختلفة يشير بها إلى دلالات مضمرة ، و يدعّم بها أوضاع كلامه و من ثم يحمل المتلقي على القبول بالضمني المتوخى . أما عن أهم هذه الماديات التي كانت أبلغ من الملفوظات في التأثير في متلقي الخطاب السياسي أذكر ما يلي:

1.4 السيف :

السيف اسم السلاح و هو علم على أسماء كثيرة و هو ضجيج الفارس و حبيبه و له في حياة العربي الفاتك و مخيلته النصيب الأوفى بين مقتنياته فهو يطعن به كالرمح و يضرب به كالعمود و يقطع به كالسكين و يجعله سوطا و متكأ و عصا و يتخذه جمالا في الملأ و فخرا في المنتدى و يحمله سراجا في الظلمة و أنيسا في الوحدة و يصاحبه جليسا في الخلاء و ضجيعا في المنام و يزامله رفيقا في السير و رديفا في الركوب2 .

أما حين ينجرد السيف من غمده ليعاين ، فليس ثمة معنى له (السيف) بعيدا عن فعله، و لا شك أن أهم أفعاله قطع الرقاب ثم الاستخفاف بالأعداء و تخويفهم و بث الرعب في نفوسهم.

هذه هي إذن أهم الدلالات التي عول عليها "أبو الحنيف" عندما سلَّ سيفه ، حيث قام خطيبا في ملأ جمعه "معاوية" سعيا في ضمان ولاية العهد لابنه يزيد، إذ قال: « يا أمير المؤمنين، إنا لا نطيق ألسنة مضر و خطبها، أنت يا أمير المؤمنين، فإن هلكت فيزيد

---

[1] هيثم سرحان، الأنظمة السيميائية، دراسة في السرد العربي القديم، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 2008، ص300.

[2] ينظر عبد الإله صائغ، الخطاب الإبداعي الجاهلي و الصورة الفنية، ، الدار البيضاء/ بيروت، ط1، 1997 ص 114.

بعدك، فمن أبى فهذا و سلَّ سيفه»1.

إن هذه الخطبة يختلط فيها القول بالفعل، و تتحدد من خلالها ملامح العلاقة بين الأطراف و تبرز طبيعة السياسة الأموية التي تقوم على إعطاء المقارب و مداراة المباعد و ضرب رؤوس المخالفين2 ، يبين ذلك الرسم التالي:

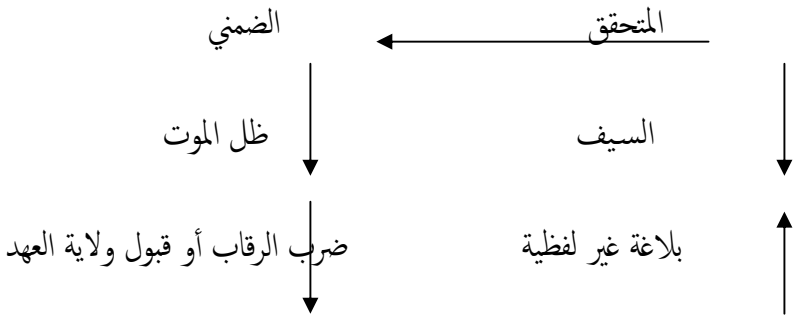

إن" السيف" الذي شهره "أبو الحنيف" يشير إلى العنف الممارس في ظل الصراع السياسيي و التنازع على السلطة والسلطان بين الحاكم و الجماعات السياسية المعارضة، و قد استند المتكلم إلى القول المضمر "ضرب الرقاب" المنطوي تحت الإشارة المادية "السيف" حتى يبث الرعب في نفوس المخاطَبين ومن ثم يحملهم على الخضوع و قبول ولاية العهد ليزيد بن معاوية .

2.4 المصاحف على أسنة الرماح:

أمر معاوية رضي الله عنه جنوده الذين كانوا على وشك الانهزام أن يرفعوا المصاحف

[1] الإمامة و السياسة، ص139.

[2] ينظر محمد النويري، الأساليب المغالطية، مدخلا لنقد الحجاج ، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، منوبة، تونس، مجلد XXXIX، 1998 ص 428.

للاحتكام إليها في حسم الصراع و قد كان "عمرو بن العاص" هو صاحب تلك الحيلة الإيديولوجية،حيث قال: « و الله لأدعونهم إن شئت إلى أمر أفرق به جمعهم، و يزداد جمعك إليك اجتماعا، إن أعطوكه اختلفوا، و إن منعوكه اختلفوا»1 ، و هو بذلك واثق من نتيجة هذه الخطة في بلبلة عقول أتباع "علي" رضي الله عنه و اختلافهم، و هذا ما تحقق بالفعل.

و قد كانت هذه الحيلة موجهة القدر نفسه لجنود معاوية، تزييفا لوعيهم، بإقناعهم أن قوادهم يخوضون حربا دينية مقدسة، و ذلك إخفاء للأطماع و المصالح الدنيوية الطبقية المباشرة2.

فحتى يؤثّر معاوية رضي الله عنه في نفوس أنصار "علي" و يستميلهم إلى وقف القتال يتكىء على العلامة غير اللفظية "المصاحف على أسنة الرماح" للدلالة على أن القرآن الكريم هو الحكم بين الفريقين .

لقد نجحت هذه العلامة في التأثير في المتلقي و تحقيق النتيجة المرجوة (الضمني)، إذ جاء زهاء عشرين ألف مقاتل من جيش الإمام علي رضي الله عنه حاملين سيوفهم على عواتقهم ، وقد اسودّت جباههم من السجود ، يتقدّمهم عصابة من القرّاء الذين صاروا خوارج فيما بعد ، فنادوه باسمه لا بإمرة المؤمنين : يا علي اجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت .

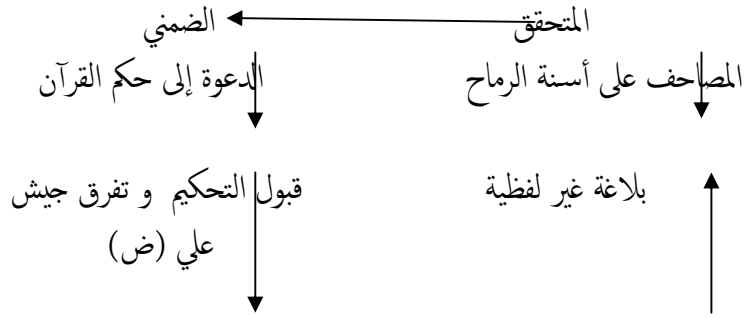

[1] الإمامة و السياسة، ص95.

[2] ينظر نصر حامد أبو زيد، الخطاب و التأويل، ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2000،ص130.

3.4 قميص عثمان و نتف لحيته :

كتبت "نائلة بنت الفرافصة" إلى معاوية تصف دخول القوم على عثمان، و أخذه المصحف ليتحرم به، و ما صنع محمد بن أبي بكر، و أرسلت بقميص عثمان مضرجا بالدم ممزقا، و بالخصلة التي نتفها الرجل المصري من لحيته، فعقدت الشعر في زر القميص، ثم دعت "النعمان بن بشير الأنصاري" ليمضي بالقميص إلى "معاوية" رضي الله عنه1.

لقد كان هذا القميص الذي عُقدت في زره الخصلة المنتوفة من لحية "عثمان بن عفان" رضي الله عنه أهم بلاغة غير لفظية قدمها "معاوية" رضي الله عنه لأهل الشام حتى يضمن استجابتهم لما يدعوهم إليه، جاء في الكتاب « صعد المنبر معاوية بالشام، و جمع الناس، و نشر عليهم القميص، و ذكر ما صنعوا بعثمان، فبكى الناس و شهقوا، حتى كادت نفوسهم أن تزهق، ثم دعاهم إلى الطلب بدمه، فقام إليه أهل الشام ، فقالوا: هو ابن عمك، و أنت وليه، و نحن الطالبون معك بدمه، فبايعوه أميرا عليهم»2

لقد استغل معاوية رضي الله عنه قميص عثمان المضرج بالدماء و الخصلة المعقودة في زره لتمرير أفكاره و تبرير سياسته. متكئا في ذلك على أهم الأقوال المضمرة التي تقدمها هذه الإشارات، لعل أهمها القتل الوحشي3 الذي تعرض له "عثمان رضي الله عنه" فضلا عن

---

[1] الإمامة و السياسة، ص42.

[2] الإمامة و السياسة، ص70.

[3] جاء في الكتاب عن مقتل عثمان رضي الله عنه: ...فدخل عليه محمد بن أبي بكر فصرعه و قعد على صدره، و أخذ بلحيته، و قال يا نعثل: ما أغنى عنك معاوية و ما أغنى عنك ابن أبي عامر و ابن أبي سرح= =فقال له عثمان: لو رآني أبوك رضي الله عنه لبكاني، و لساءه مكانك مني، فتراخت يده عنه، و قام عنه و خرج فدعا عثمان بوضوء فتوضأ، و أخذ مصحفا، فوضعه في حجره ليتحرم به و دخل عليه رجل من أهل الكوفة بمشقص (آلة حادة) في يده فوجأ به منكبه مما يلي

الإهانة التي لحقته عند نتف لحيته ، ذلك أن اللحية عند العرب رمز الرجولة وزينتها وسيماء تكريم الرجل وتقديره. وإهانتها (اللحية) عند العرب من أعظم الإهانات التي لا تغتفر، وتقبيلها عندهم من علامات التقدير والاحترام والإجلال. وبعد نتف اللحية أو جزها أو حلقها إهانة كبيرة تنزل بصاحبها. يفعلها من يريد الازدراء بشأن الملتحي1.

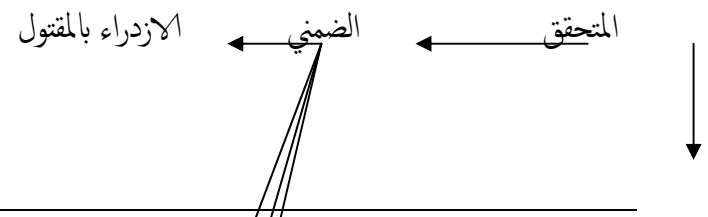

الترقوة، فأدماه و نضح الدم على ذلك المصحف، و جاء آخر فضربه برجله، و جاء آخر فوجأه بقائم سيفه، فغشي عليه، ..... ثم دخل رجل من أهل مصر فأخذ بلحيته ، فنتف منها خصلة، و سل سيفه، و قال افرجوا لي، فعلاه بالسيف، فتلقاه عثمان بيده فقطعها، فقال عثمان: أما و الله إنها أول يد خطت المفصل و كتبت القرآن، ثم دخل رجل أزرق قصير مجدر، و معه جرز من حديد (السيف القاطع) فمشى إليه فقال، على أي ملة أنت يا نعثل، فقال لست بنعثل، و لكني عثمان بن عفان، و أنا على ملة إبراهيم حنيفا و ما أنا من المشركين، قال كذبت، و ضربه بالجرز على صدغه الأيسر فغسله بالدم، و خر على وجهه، ..... ثم دخل آخر معه سيف فقال افرجوا لي ، فوضع ذباب السيف في بطن عثمان فأمسكت نائلة زوجته السيف فحز أصابعها، و مضى السيف في بطن عثمان فقتله.ينظر الإمامة و السياسة، ص40، 41.

[1] ينظر جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام،دار الساقي، ط4، 2001، ج1 /2446 http://www.raqamiya.org (كتاب إلكتروني).

القميص المضرج بالدم
و خصلة اللحية المنتوفة

قتل عثمان مظلوما.
المطالبة بدم عثمان
الخلافة لمعاوية

بلاغة غير لفظية

4.4 الذوائب و الثنايا:

لمَّا أمر الخليفة "هارون الرشيد" بقتل "جعفر بن يحي بن برمك" خرجت إليه ضئرُه "أم جعفر بن يحي " و هي كاشفة وجهها واضعة لثامها محتفية، متشفعة ليحي ، فلم يقبل هارون كل حججها و رفض شفاعتها، فلما رأته صرَّح بمنعها، و لاذ من مطلبها، أخرجت له حقا من زمردة خضراء، فوضعته بين يديه، وفتحت عنه قفلا من ذهب، فأخرجت منه خفضه و ذوائبه[1]و ثناياه قد غمست جميع ذلك في المسك، و قالت: « يا أمير المؤمنين أستشفع إليك و أستعين بالله عليك و بما صار معي من كريم جسدك، و طيب جوارحك، ليحي

[1] الذؤابة : ضفيرة الشعر المرسلة، حيث يضفر شعر رأس الأطفال ذوائب، أي ضفائر تتدلى على رأسه وعلى ناصيته. ومتى كبر الطفل وبلغ سنّ الرشد، أو شعر برجولته، ضفرت له ذؤابتان، وهي علامة الشباب= = =والرجولة عندهم. وقد كان الساميوّن يحتفلون بحلق الذوائب، لأن هذا الحلق معناه انتهاء مرحلة من الحياة ودخول الطفل مرحلة الرجولة، وهي مرحلة الحياة الصحيحة. والعادة أنهم يضفرون الأطفال سبع ضفائر. وهي عادة معروفة عند الجاهليين أيضاً،، ولا تزال متبعة عند الأعراب وأشباه الحضر. وقد يعلقون حلياً على كل ضفيرة، وذلك إمعاناً منهم في تدليل الطفل وفي إبراز جماله. فالزينة وتعليق الحلي من مظاهر التدليل والتجميل.ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام.

عبدك »1 .

لقد فاقت هذه البلاغات غير اللفظية الملفوظ في التأثير و الاستمالة، فقد استعبر الخليفة و بكى بكاء شديدا، و بكى أهل المجلس كذلك لما بثت فيهم هذه الإشاريات من تأثير في نفوسهم.

إن أم الرشيد تتوسل بحفظها لجوارح الخليفة، فحجتها هي حفظ الوديعة، و هي تتعلل بهذه البلاغة غير اللفظية حتى تنال المكافأة من الخليفة و هي الصفح عن "جعفر بن يحي".

يوضح الضمني الناتج عن البلاغة غير اللفظية الرسم التخطيطي الآتي:

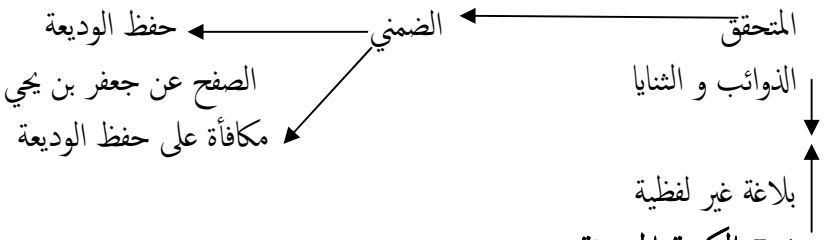

5.4 الكعبة المشرفة

تمثل حرمة البيت الحرام "الكعبة المشرفة" أحد المقومات الثقافية القائمة في أذهان كل من المخاطِب و المتلقي و المنغمسة في عمق تفكيرهما، ذلك أن "الكعبة الشريفة" تعد معلما من معالم القداسة؛ فهي تمثل بداية الخلق و النشوء ، إذ أن خلقها كان سابقا على خلق الأرض و خلق آدم، و هي امتداد للبيت المعمور الذي خلقه الله تعالى في السماء لتطوف به الملائكة بدلا من طوافها بالعرش2.

و لقد زادت قداسة البيت العتيق و حرمته بعد الإسلام، خاصة بعدما اقترن بأحد الأركان الأساسية لشعيرة الحج ، الطواف، و هو (الطواف) ممارسة تؤكد رغبة المؤمن الملحة باللحاق بمصاف الطائعين، و العودة إلى المكان الأول: الجنة.

---

[1] الإمامة و السياسة، ص342 .

[2] ينظر هيثم سرحان، الأنظمة السيميائية، دراسة في السرد العربي القديم، ص73.

حُرمة البيت المحرم إذن هي مجال من مجالات القوة التي تتيح للمخاطب السياسي ممارسة السلطة الثقافية، إلاّ أن والي مكة "خالد بن عبد الله القسري" يعبث بهذا المقدس و يهدم حرمته لأجل إرضاء أحزم بني أمية "عبد الملك بن مروان". حيث قال و ظهره إلى الكعبة قد استند عليها :« و الله لو علمت أن عبد الملك لا يرضى عني إلا بنقض هذا البيت حجرا حجرا لنقضته في مرضاته» جوابا لرجل من أهل الشام التمس منه أن يخلّي سبيل "سعيد ابن جبير" .

لقد عمل المخاطِب السياسي على بناء غير المسلم به عند المتلقي" هدم البيت العتيق إرضاء لعبد الملك" (الضمني) على المسلم به عنده "حرمة الكعبة المشرفة " (المتحقق) ، يوضح ذلك الترسيمة الآتية:

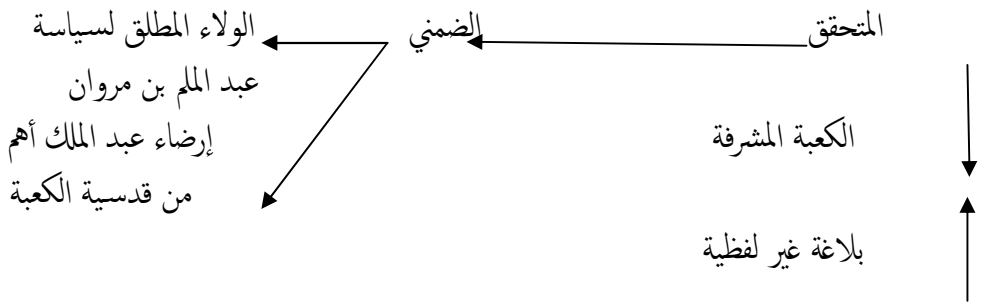

خلاصـــة:

أتقن المخاطِب في كتاب "الإمامة و السياسة" نقل البلاغات غير اللفظية من بعدها المادي إلى جوهرها العلامي ، إذ عوَّل على الضمني الذي انطوت عليه لدفع متلقيه إلى إمعان النظر فيما قدمه في غفلة من الكلمات أو بتواطؤ منها.

لقد استطاع و بتفوق أن يستميل غريمه بوساطة حركات جسمية بسيطة تحمل من الدلالة ما تجعله ينمي حاسة الراحة و الاطمئنان، و أن ينقل معنى التصارع و الاختلاف بحركة تشبيك الأصابع لمتلقيه، و أن يستميلهم فيبعث فيهم الشجن أو يرهبهم فيبعث فيهم الفزع بوساطة الضمني المنطوي في بعض الإشاريات كقميص عثمان و السيف المسلول.

الهوامش و المراجـــع

1.عبد الإله صائغ، الخطاب الإبداعي الجاهلي و الصورة الفنية، ، الدار البيضاء/ بيروت، ط1، 1997.
2. الجاحظ، البيان و التبيين، ج1، تحقيق و شرح، عبد السلام هارون،دار الجيل، بيروت، ج1، دط، دت.
3. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام،دار الساقي، ط4، 2001، ج1 /2446 http://www.raqamiya.org (كتاب إلكتروني).
4. حسن المودن الخطاب الإقناعي في البلاغة العربية، ملخص عن أطروحة دكتوراه الدولة، كلية الآداب، مراكش، جوان 2006، ديوان العرب، دراسات و أبحاث، http://www.diwanalarab.co/spip.php?article5018
5. العياشي عبوب، سيميائيات الجسد في طقوس كناوة، بحث في الهوية و الامتداد. أنفاس .نت، نوفمبر 2010، http://www.w3.org/TR/xhtml1/DTD/xhtml1-transitional.dtd
6. ابن قتيبة، الإمامة و السياسة، تحقيق خليل المنصور،دار الكتب العلمية، بيروت ، ط1، 2001.
7. محمد داود، الدلالة و الحركة، دراسة لأفعال الحركة في العربية المعاصرة في إطار المناهج الحديثة،دار غريب، القاهرة، 2002.
8. محمد العبد، العبارة و الإشارة، دراسة في نظرية الاتصال، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 2007.
9. محمد النويري، الأساليب المغالطية، مدخلا لنقد الحجاج ، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، منوبة، تونس، مجلد XXXIX، 1998
10. نصر حامد أبو زيد، الخطاب و التأويل، ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2000.
11. هيثم سرحان، الأنظمة السيميائية، دراسة في السرد العربي القديم، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 2008.
12. والتر أونج، الشفاهية و الكتابية، ترجمة حسن البنا عز الدين، عالم المعرفة، الكويت، فيفري،ع182، 1994.